التشيع في الشام وجبل عامل خاصة

● الشيخ محمد تقي الفقيه

قال الشيخ أحمد رضا: أن التشيع في بلاد الشام هو أقدم منه في كل البلاد غير الحجاز، وهذا من العجيب أن يقوم أول ركن وتنتشر أول دعوة للشيعة في بلاد محكومة لأعدى الناس لهم.

لما سُيِّر أبو ذر الغفاري (رضي الله عنه) منفياً إلى الشام بأمر أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضي الله عنه) لمقالة بلغته عنه، أقام في دمشق مدة يبث دعوته، لا يرهب في أمره صولة ولايخشى قوة ولم يكن نفيه هذا ليلين من شكيمته شيئاً، فكان ينشر مذهبه في العلوية وآراءه الاشتراكية من حيث عدم استئثار الأغنياء بأموالهم دون الفقراء حتى استجاب له قوم في نفس الشام لايزالون ثابتي المعتقد في التشيع إلى اليوم، ثم كان يخرج إلى الساحل فكان له مقام في قرية الصرفند القريبة من صيدا، ومقام آخر في قرية ميس المشرفة على غور الأردن، وكلتاهما من قرى جبل عامل والمقامان إلى الآن معروفان وقد اتخذا مسجدين، فكان له حينئذ في هذه الديار مَنْ استجاب دعوته وهم كثيرون، وعرفت العلوية في جبل عامل منذ ذلك الحين، أما معاوية فقد استغاث بعثمان (رضي الله عنه) من أبي ذر، وكتب إليه أن أبا ذر أفسد علينا الشام فأمر برده إلى المدينة فارسله إليها مُهانا، على بعير ضالع بلا وقاء ولا غطاء بعد أن شتمه ونال منه ما اشتهى، كما ذكره ابن الأثير في كامله والطبري في تاريخه، وإن كرها أن يذكرا بعد ذلك أسباب نفيه للربذة، ولايمكن التسليم بأن الأمر الذي أحرج معاوية فأخرجه عن حلمه حتى فعل بأبي ذر مافعل، هو رأيه هذا وحده، بل هو أمر أهم من هذا وأعظم، ألا وهو الدعوة العلوية، التي كانت تقضي على آمال معاوية كلها، ويكاد يغص لذكرها بالماء الفرات.

إن أبا ذر كان معروفاً بميله الشديد إلى الهاشميين عامة ؟ وإلى علي عليه السلام خاصة وقد كان ممن تخلف مع علي عن البيعة يوم السقيفة على مارواه أبو الفداء وغيره، بل هو أول من أطلق عليه اسم الشيعة، فقد ورد في كتاب الزينة في تفسير الألفاظ المتداولة بين أرباب العلوم لأبي حاتم الرازي كما نقله عنه صاحب الروضات أن أول اسم ظهر في الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة وهم أبو ذر، وسلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، إلى أن آن أوان معركة صفين فاشتهر بين موالي علي (ع) انتهى!

وقال أيضاً: ولم يكن أبو ذر يرهب قوة في المهاجرة برأيه وحسبك شاهداً ما أتى به في مجلس

عثمان (رضي الله عنه) لما احضرت أموال عبد الرحمن بن عوف وما صنعه وقتئذ بكعب الأحبار على ما رواه المسعودي، إنتهى![١]

ولقد عقب الأمير شكيب [٢] فقال أما كون التشيع في جبل عامل هو أقدم منه في العجم بل في كل قطر حاشا الحجاز، فمن الحقائق التي لا خلاف فيها، بل التشيع في العجم أحدث منه في سائر بلاد الإسلام[٣] ثم استطرد تاريخ ظهور التشيع في إيران ثم ذكر انه في العرب وبلاد الشام لم يكن ظاهراً وأن الشيعة كانت تستمسك بحبال التقية خوفاً على أنفسهم، ولذلك تجد المؤرخين يتجانفون عن نسبة علماء الشيعة إلى التشيع الا اضطراراً، ثم ذكر شواهد كثيرة على ذلك ملخصها: أن جملة من أعيان الشيعة وعلمائها المعروفين وقد صرح بأسمائهم واحد واحداً - ترجمهم المحبي وغيره ولم ينسبهم إلى تشيع أو رفض، وإنما نسب من قتل منهم بأنه رمي بالرفض فقتل إلى أن انتهى إلى فريد عصره الشيخ بهاء الدين العاملي فحكى عن المحبي أنه ورد الشام ونزل بمحلة الخراب وهي محلة الشيعة منذ فتحت الشام حتى اليوم ونقل في حقه عبارة للشيخ أبي الوفاء العرضي وهي أنه لما قدم حلب في زمان السلطان مراد بن سليم، حضر دروس الوالد أي الشيخ عمر وهو لايظهر أنه طالب علم حتى فرغ من الدرس فسأله عن أدلة تفضيل الصديق علي المرتضى، فذكر حديث ماطلعت الشمس ولا غربت فرد عليه وأخذ يذكر أشياء كثيرة تقضي تفضيل المرتضى، فشتمه الوالد، وقال له رافضي شيعي وسبه، فسكت، ثم أن البهائي أمر بعض تجار العجم أن يصنع وليمة يجمع فيها بين الوالد وبينه، فصنعها ودعاهما فأخبره أن هذا هو الملا بهاء الدين عالم بلاد العجم وقال للوالد: شتمتمونا، فقال له ما علمت أنك الملا بهاء الدين ثم قال أنا سني، أحب الصحابة ولكن كيف أفعل سلطاننا شيعي ويقتل العالم السني، قال المحبي: ولما سمع بقدومه أهل بني عامل تواردوا عليه أفواجاً أفواجاً فخاف أن يظهر أمره فخرج من حلب، الخ، انتهى.

قال الأمير شكيب: ومن هنا يظهر أن الشيعة كانوا لايزالون معتصمين بالتقية ومتكتمين في أمرهم مئين من السنين، لأنهم لا جدال في كونهم موجودين في الشام منذ أوائل الفتح الإسلامي ومع هذا، فالمؤرخون لايذكرون هذا الأمر إلا عرضاً، وربما لايذكر اصلاً.

ومما يدل على القدم والتكتم، كون الاسماعلية والدروز قد خرجوا من الشيعة، ويقال: أنهم خرجوا من الشيعة السبعية، أي القائلين بالأئمة السبعة وقد وقع في أواخر القرن الرابع للهجرة وأوائل القرن الخامس منه في أيام الدولة الفاطمية الغالية في التشيع، فالشيعة كانوا في هذه

---

(١) كلام الاستاذ رضا، العرفان م٢ ص٢٢٩.

(٢) في مقال نشره في المقتطف ونقلته مجلة العرفان في المجلد الثاني صفحة ٤٤٨ لتعلقه بمقالات نشرها الاستاذ رضا فيها.

(٣) وقد عقب الأمير شكيب ارسلان كاتب آخر تبريزي بتوقيع (علي بن موسى) استعرض فيه تاريخ التشيع ونسب نفسه إلى تبريز.

الجبال قبل هذه الطوائف التي خرجت منهم، ومنازل الفريقين لم تزل متناوحة، مما يستدل به على وحدة الجرثومة، فضلاً عما بين كثير من عشائر الفريقين من القرابات[١] والكلالات والانساب المتحدة في الأصل متواتراً ذلك خلفاً عن سلف، يؤيد كون هذه الطوائف كلها راجعة في أصلها إلى العرب، انتهى بلفظه.

وقد ذكر الاستاذ ظاهر مايقرب من كلام صاحبيه قائلاً: إن قدم التشيع في هذا القطر يعني جبل عامل يمتد إلى خلافة عثمان (رضي الله عنه) وإلى عهد نفي أبي ذر[٢].

وقال الحر العاملي[٣]: إن تشيعهم -يعني العامليين- أقدم من تشيع غيرهم، فقد روى أنه لما مات رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن من شيعة علي إلا أربعة مخلصون: سلمان، وأبو ذر، والمقداد وعمار، ثم تبعهم جماعة قليلون، اثنا عشر وكانوا يزيدون ويكثرون بالتدريج، حتى بلغوا ألفاً وأكثر، ثم في زمن عثمان لما أخرج أبا ذر إلى الشام، بقي أياماً فتشيع جماعة كثيرة ثم اخرجه معاوية إلى القرى، فوقع في جبل عامل، فتشيعوا من ذلك اليوم، ثم لما قتل عثمان، وخرج أمير المؤمنين (ع) من المدينة إلى البصرة، ومنها إلى الكوفة، تشيع أكثر أهلها ومن حولها، ولما تفرقت عماله وشيعته كان كل من دخل بلاداً تشيع كثير من أهل تلك البلاد بسببه، ثم لما خرج الرضا (ع) إلى خراسان تشيع كثير من أهلها، وذلك مذكور في الواريخ والأحاديث، فظهر أنه لم يسبق أهل أجل عامل إلى التشيع إلا جماعة محصورون من أهل المدينة، وقد كان أيضاً في مكة والطائف واليمن والعراق والعجم وشيعة قليلون، وكان أكثر الشيعة في ذلك الوقت أهل جبل عامل، انتهى بلفظه.

قلت: ومن عرف ماكانت تشتمل عليه مكتبة الحر صاحب الوسائل وما تهيأ له من الأعوان، وعرف ما أنفقه من عمره الشريف في التأليف والتصنيف، والضبط جزم بكل مافي كلامه، وأشده ارتباطاً فيما نحن فيه قوله: ثم أخرجه معاوية إلى القرى فوقع في جبل عامل، فتشيعوا من ذلك اليوم، فإنه نص صريح في المطلوب.

وقال العلامة الأمين معقبا على ماذكره الحر العاملي: ثم إن اقتصار صاحب أمل الآمل على الأربعة، والاثنى عشر في عدد الشيعة، بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غير صواب، فقد كان جميع بني هاشم شيعة، وكان معهم الزبير، لم يفارقهم، وعندما امتنع علي (ع) عن البيعة، ودخلوا عليه البيت، كان الزبير مع بني هاشم في البيت، وحضر دفن الزهراء (ع) لما دفنت ليلاً، وما تغير حتى نشأ ولده عبد الله، وكذلك جل أهل اليمن والطائف كانوا شيعة، بل قيل أن أهل البطاح بالبادية لايعرفون غير التشيع، انتهى.

قلت: لا ريب أن أبا ذر هو الذي حمل التشيع في عهد عثمان من المدينة المنورة، إلى دمشق، وبذره فيها، ولم يزل يعيش فيها حتى الساعة، ويشهد لذلك جميع ما أسلفناه.

---

(١) يؤيد ماقاله الأمير شكيب ارسلان أن الدروز حتى اليوم يزعمون أن الشيعة أولاد عمهم.

(٢) العرفان م ٣٠ ج أول وثاني تحت عنوان: (اغلاط الاعلام).

(٣) في كتابه (أمل الأمل في علماء جبل عامل) في الطبعة الملحقة برجال الميرزا محمد المعروف بمنهج المقال ص ٤٢٤.

ويشهد له أيضاً: أن المعروف عند العامليين أنفسهم، أن أبا ذر هو الذي نشر التشيع في بلادهم وهم يتناقلون ذلك خلفاً عن سلف، ويسمون أنفسهم شيعة أبي ذر، ويتبركون بهذه التسمية ويتيمنون بها.

ومن الشواهد التاريخية على ذلك أيضاً، التي لاتكاد تقبل الشك، أن بلاد عاملة، لاتزال تحتفظ بمكانين، يزعمون أن أبا ذر كان يقيم فيهما، وقد أصبحا على طول الزمن مسجدين ينسبان لأبي ذر، ويزورهما الخواص من المؤمنين، ويصلون فيهما تبركاً، أما أحد هذين المسجدين ففي بلدة ميس الجبل، المشرفة على بحيرة الحولة، وأما الآخر، ففي بلدة الصرفند، الواقعة بين صور وصيدا على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وقد صليت فيه أكثر من مرة قبل ثلاثين سنة تقريباً، وهو مسجد صغير، مبني على الطراز القديم (قبو)، ويقع على قمة جبل صخري متلاصق الصخور، يصعب السلوك إليه، وكان في ذلك الوقت منعزلاً عن البلدة في تلك القمة، وهذا المكان يشبه الأمكنة المنسوبة إلى أنبياء بني اسرائيل، مثل مقام شمع وصافي ومحيبيب وغيرهم، ولعلهم كانوا يختارونها طلباً للعزلة عن الناس، يساعدان النفس على التوجه لمناجاة الخالق، والشعور بالقرب منه، وبث الشكوى إليه، والاستعانة به.

بقي علينا أن نشير إلى السبب في مجيء أبي ذر إلى الشام، وفي خروجه منها إلى جبل عامل فنقول: أما مجيئه إلى دمشق فكان بأمر من عثمان وكان السبب في ذلك هي البوادر الشاذة اسلامياً، التي صدرت في عهد عثمان من حاشيته وأقاربه، والتي لم يستطع المخلصون من الصحابة السكوت عليها، فطالبوا عثمان بتداركها بالحاح وتكرار، فكان يتنصل من بعضها، ويصر على بعضها غير مكترث، واعقب هذا أمر مهم، وهو أن من أحسن الظن به اتهمه بالضعف، ومن أساء الظن فيه اتهمه بالانحراف، وقد أدى ذلك في النهاية إلى تجمهر عظماء المسلمين من مصر والعراق والحجاز، وتجمعهم في المدينة المنورة، واجتماع رأيهم على تنحية عثمان من الحكم.

وكان عثمان قبل ذلك قد أعاد أبا ذر من الشام إلى المدينة، على حال لم يرتضها المسلمون، ثم نفاه إلى الربذة انتقاماً منه، بعدما سأله عثمان قائلاً: أي البقاع أحب إليك؟ فقال: الربذة، فأمره بالخروج إليها، ونهى الناس عن تشييعه مخافة تجمهر المسلمين، لأنهم كانوا يعظمون أبا ذر ويكبرونه، فامتنعوا ولكن أمير المؤمنين علياً (ع) والحسنين وبعضاً آخر خرجوا لتشييعه، وخرج بعض خاصة عثمان لينبههم على ذلك، فقال علي (ع): أو كلما قال عثمان نطيعه فيماقال؟.

وكان مشهد الوداع والكلمات التي قيلت فيه مشهدا مؤثراً. ولما أمره عثمان بالخروج، قال: أخبرني حبيبي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قائلاً: يا أبا ذر تعيش وحدك وتموت وحدك وتحشر وحدك.

وهكذا كان.. فقد مات أبو ذر في الربذة وحده قبل مقتل عثمان، وعندما حضرته الوفاة كان وحده ولم يكن عنده إلا ابنته الوحيدة، التي قالت له في تلك الساعة العصيبة: يا أبتي.. تموت غريباً ليس معي من يساعدني على شأنك؟ فقال لها: إذا أنا قضيت، فاجلسي على قارعة الطريق، فيمر بك ركب من المسلمين، فاخبريهم بخبري، فإنهم يقومون بأمري، ففعلت، فاجتاز بها ركب من

المسلمين العراقيين ساعة موته، وكان مالك الاشتر من بينهم، فاخبرتهم بخبره، فعظم عليهم ذلك، ثم غسلوه وكفنوه ودفنوه، وأبنوه بكلمات خلدت مع التاريخ بخلود أبي ذر، وحملوا ابنته معهم، وأنزلوها في دار أمير المؤمنين علي (ع) وشاع الخبر طبعاً، فكان هذا الحدث هو الحدث الأخير، الذي أحفظ المسلمين، وزاد في سخطهم على عثمان إلى أبعد حد، ثم حوصر عثمان في داره، وانتهى الأمر بموته قتلاً، وبقي أياماً لم يدفن ملقى على حش كوكب في ضاحية المدينة المنورة.

والذي نعتقده أن عثمان كان يتحامى أبا ذر، وأنه أرسله للشام لابعنوان الانتقام، بل بعنوان البعث، فإن المدينة المنورة كانت تصدر القادة والجيوش إلى الامصار والثغور، وكانت تدون أسماء هؤلاء، فكان أبو ذر في بعث الشام، ويشهد لذلك قول عثمان لأبي ذر: الحق بمكتبك، والظاهر أن هذا هو المقصود من هذه الكلمة.

ولكن، لماذا اختار له الشام، وهي أطيب من البلاد الحجازية مناخاً، وأكثرها رفاهاً.

والذي نعتقده أنه إنما اختار ذلك بعد فشله في محاولة شرائه بالمال طمعاً بتطويق أفكاره المناهضة للاتجاه السياسي والاقتصادي، الذي كانت تخططه الدولة في ذلك العهد وتسير عليه، فإن عثمان أغدق على أقاربه وخاصته، وكان منهم مروان بن الحكم ووالده الحكم، اللذان طردهما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته من المدينة، وسميا طريدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وبقيا طريدين في أيام خلافة أبي بكر وفي أيام عمر أيضاً، ولما انتهت الخلافة إلى عثمان، أرجعهما للمدينة لقرابتهما منه، فاغضب ذلك المسلمين، وكان معاوية في ذلك الوقت حاكم الشام وهو من أقرب الناس إلى عثمان، ومن أكثرهم استفادة من سلطانه، ولعل عثمان كان يظن أن معاوية سيريحه من أبي ذر، أو يظن أن أهل الشام لايستمعون لكلام أبي ذر ولا يأبهون به، ولكن الأمر كان على العكس فإن معاوية كان أكثر حصافة وأبعد نظراً، ومن ثم لم يسء لأبي ذر بأكثر من حرمانه من العطاء المقرر له، وأما أهل الشام فإنهم تجمعوا حول أبي ذر وصدقوه لشهادة الصحابة له بالصدق، مستندين في ذلك إلى شهادة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) به.

وبعد ذلك أصبح أبو ذر يتمتع بحصانة التصديق، وأصبح يهاجم معاوية في عقر داره، فكان يدخل على معاوية في قصره، أو يقف على باب ذلك القصر، ويحاسبه عى ما انفقه فيه، ويقول: جاء القطار بحمل النار، وما أشبه ذلك، وبعد ذلك كتب معاوية إلى عثمان كتاباً يقول فيه: أما بعد فإن أبا ذر أفسد أهل الشام عليك، فإن يكن لك بها حاجة فخذه إليك، فأمره عثمان بإرجاعه إلى المدينة، فأرجعه إليها على مركب خشن، وأمر مرافقه أن يسير به بعنف، وأن لايسمح له بالاستراحة، ولعله كان يظن أن ذلك سيودي بحياته لضعفه وشيخوخته، فوصل إليها على أسوأ حال، وفتح هذا العمل بابا آخر على عثمان، واستغله خصومه.

ثم إن سبب خروج أبي ذر إلى بلاد عاملة ولم يزل مجهولا، فمن المحتمل أن يكون قد خرج إليها بأمر من معاوية، وبه حدثنا الحر العاملي حيث قال: ثم اخرجه معاوية إلى القرى، فوقع في جبل عامل، فتشيعوا من ذلك اليوم إلى أن قال: وذلك مذكور في التواريخ والاحاديث انتهى[1]،

(١) أمل الأمل، الملحق بمنهج المقال ص٤٢٤.

ومن المحتمل أن يكون قد خرج إليها مختاراً، طمعاً في نشر دعوته في زاوية من زوايا بلاد الشام منقطعة عن العاصمة، وبعيدة عن الرقابة، ومن المحتمل أن يكون قد خرج إليها تسكينا لغيظ معاوية من جهة، واستفراصاً لنشر دعوته من جهة أخرى، ولكن لاطريق لنا من الوجهة التاريخية إلى الجزم بشيء من هذه المحتملات، وعلى كل حال، فقد نجح أبو ذر، فإن جبل عامل لايزال يحمل عقيدته ويحتضنها ويحامي عنها إلى يومنا هذا[٢].

وقد ظهر من جميع ماقدمناه، أن التشيع بكل معانيه كان موجوداً في عهد عثمان، وأنه لم يولد بعد مقتله، كما يقوله أكثر المستشرقين، وجمع من خصوم الشيعة والتشيع، وجمهور ممن يقلد المستشرقين ويعتقد بآرائهم، ولا ريب أن مؤرخي المسلمين هم اعرف بتاريخ الإسلام وبتاريخ فرقه من الغرباء عن الإسلام والمسلمين.

وظهر أيضاً أن غضبة عثمان ومعاوية وأنصارهما على أبي ذر، لم تكن لمجرد ابداء الملاحظات والمحاسبات، بل لما كان يهدف إليه أبو ذر... فإنه كان يهدف إلى تحويل مجرى الخلافة وارجاعها لأهلها.

ومن الغريب بقاء التشيع منذ ذلك العهد إلى اليوم في بلاد عاملة، وفي الشام نفسها مع مطاردة الحكام للشيعة ومناوأتهم للتشيع... ومن الغريب أيضاً أن يعيش التشيع في دمشق نفسها في ثلاث مناطق كلها شيعية وأن يبقى من ذلك العهد إلى هذه الساعة، وتلك المناطق هي: الخراب والجورة والصالحية، وبعض القرى المجاورة لدمشق.

انتشار التشيع في سورية

في القرن الثالث إلى السادس للهجرة

● السيد محسن الأمين[٣]

لقد انتشر التشيع في بلاد الشام عموماً في غير جبل عامل انتشاراً عظيماً ولاسيما في عصر البويهيين وبني حمدان والفاطميين وذلك في أواخر القرن الثالث، وقد كانت في ذلك العصر ملوك الإسلام كلها من الشيعة: ففي العراق وفارس بنو بويه، وفي حلب والشام والجزيرة بنو حمدان، وفي مصر والمغرب الخلفاء الفاطميون. وكان الغالب على أهل سورية في ذلك العصر إلى القرن السادس بل والثامن هو التشيع فإن أهل حلب كانوا شيعة.

في تاريخ الحكماء في ترجمة المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان النصراني أنه كتب إلى الرئيس هلال بن المحسن بن إبراهيم بعد خروجه من بغداد إلى حلب بصفة ما لقي في

(٢) الشيخ محمد تقي القفيه: جبل عامل في التاريخ ٣٤ ومابعدها

(٣) فيما كتبه السيد الأمين في خطط جبل عامل ٨٦ ومابعدها.